المنهج السياقي أداة إجرائية في قراءة النص الأدبي

حسين دحو
جامعة ورقلة (الجزائر)

ثمة علاقة وثيقة بين الإبداع والنقد، إذ لا يمكن أن نجد أدبا دون نقد كما لا يمكن أن نجد نقدا دون إبداع، بل نستطيع القول بكل ثقة؛ إنّ في أعماق كل مبدع يكمن ناقد، وإن لم يمارس النقد على أدب غيره، إذ من المؤكد أنّه يمارس النقد على أدبه تصحيحا وتشذيبا وصقلا، دون أن يعي في كثير من الأحيان أنّه يمارس فعالية نقدية»ماجدة حمود، علاقة النقد بالإبداع الأدبي، المقدّمة ص 05.

«**من السهل أن ننظر في كتب النقد العربي القديم، ومن اليسير أن نحكم مسار خطواته، ومن غير الصعب أن نصنّف نصوصه، ثم إنّه من المعقول أن نقف على الكتب والتقارير والبحوث والدراسات التي تعرّضت إليه في العصر الحديث**»[1]، ولكن الأصعب أن نتناول النص العربي القديم بالقراءة والدرس النقدي، والأصعب منه هو تحصيلنا للأدوات الإجرائية المناسبة؛ والمناهج القويمة التي تمكّننا من فك شفرات النص العربي التراثي، وتحقيق مكاسب القراءة الناقدة الواعية لمضامينه ومحتوياته.

إنّ حديثنا عن القراءة النقدية، لا يعني بأي شكل من الأشكال إقصاء القراءات الأخرى وتهميش القراء مهما كان مستواهم، بل لأن هؤلاء جميعا يلتقون في العملية القرائية النقدية بفضل توجهاتهم وميولاتهم نحو مواطن معيّنة من النص الأدبي، يقوم النقد بمساءلتها والبحث فيها، ولمّا كانت هذه الحال، وجب أن تكون القراءات النقدية المتعدّدة والمختلفة في مناهج طرقها للنصوص الأدبية، غير محصورة في الأضلاع الثلاثة للعملية القرائية،«**إذ قد تطرح هذه النظريات أسئلتها من زاوية الكاتب، أو زاوية العمل الأدبي، أو زاوية القارئ أو زاوية ما نطلق عليه عادة اسم الواقع**»[2]، تبحث في كل جزئية منها على حدة بحسب المقتضى والضرورة، إنّما تحصل القراءة الفعلية الناجعة، بتضام هذه الأجزاء قصد تكوين مفاهيم موّحدة متماسكة تؤلف مجتمعة نسقا نقديا أو مجموعة من الأنساق المتعارضة المتكاملة، الكفيلة بالحفاظ على البنية النصية، دونما تغييب لحضور أطراف العملية القرائية (المؤلف ـــ النص ـــ القارئ)، وهو ما جعل مناهج مقاربة النصوص الأدبية وقراءتها تتوزّع على اتجاهات ثلاثة، هي:

❶ الاتجاه التاريخي:

وصل الأدب بمنابعه وبما يؤثر في نشأته من عوامل وأسباب، باحثا في علاقة الأثر الأدبي بالسياق التاريخي الذي ينشأ فيه، مؤكّدا على مفهوم الانعكاس الرامي إلى أنّ النصوص الأدبية تعكس ظروفها التاريخية، فهي مرآة للعصر الذي تكتب فيه، ولقد ركّز أصحاب هذا الاتجاه في قراءتهم للعمل الأدبي على مبدعه، وذلك بتتبّع[3] سيرته وسيرة عصره، ومعالجة حالته النفسية والشعورية، معتبرين النص «**وثيقة تاريخية تدلّ على زمنها أو نفسية تشرح مغاليق نفس مبدعها**»[4]، حمّلت النص أحادية المعنى، وقتلت فيه قابليته للتداول بأن جعلت مهمة القارئ محصورة في تحصيل ما أراده صاحب النص الأدبي وحسب.

❷ الاتجاه النصي:

ركّز على العمل الأدبي لذاته، دون النظر في أبعاده التاريخية ولا شبكته العلائقية التي تربطه بصاحبه وبغايته، وقد ظهر في الحركة النقدية الحديثة التي تميّزت بمرحلية حتى وصولها إلى الدراسات اللغوية (اللسانية) التي جرّدت النص الأدبي من ماهية الأدب وجعلته وحدات لسانية منقسمة إلى فونيمات ومونيمات، منطلقة من الشكلانية الروسية، ومدرسة النقد الجديد الأمريكية،معلنة أن النص «**إنّما هو تصرّف في اللغة لا تمثيل للواقع**»[5] وأنّه «**ليس أدبيا بمعناه أو فحواه، وأنّه ليس كذلك من حيث نشأته وما عمل فيها من مؤثرات، وإنّما هو أدبي بحكم صياغته، وأسلوبه، وطريقته، ووظيفة اللغة الفنية فيه**»[6]، ليخلص هذا الاتجاه إلى أنّ النص الأدبي يقتصر على أنساقه وخصائصه البنائية التي تشكّل ماهيته.

❸ اتجاه القارئ:

اعتنى بالضلع الثالث للعملية القرائية، متوجّها صوب القارئ والمتلقي، الذي اعتقد أنّه وحده الكفيل بالحفاظ على امتداد الأثر الأدبي، وتحديد قيمته على مرّ الأزمنة، حتى وإن اندثرت عوامل نشأته، وأصبحت أنساقه منعزلة عن سياقاته الخارجية، ليرى أبدية النص الأدبي وخلوده في فعالية قارئه الذي يعدّ محركا له «**ففي الوقت الذي يتفاعل فيه هذا القارئ مع النص فيمنحه رؤاه في كل وقت وفي كل عصر من العصور**»[7]، ليتغيّر مفهوم القراءة، إلى نطاق أوسع من التلقي السلبي والمتعة المؤقتة التي تنتهي بالفراغ من السطر الأخير للنص، بل تحوّل إلى جدلية تفرض حضور هذا الطرف الثالث، وتمنحه فسحة من السلطة على النص تصنع ثنائية حوارية بين المعاني والأبنية اللغوية مع هذه النفسية المستعدّة للتحليل وإعادة البناء دون أن تُفقِد النص جوهريته، ولا أن تصيبه بالتشويه في أبنيته بترميمه أو هدمه وإعادة بنائه من جديد، فكيف بالقراءة النقدية التي تجاوزت كونها «**القراءة التقبّلية التي نكتفي فيها عادة، بتلقي الخطاب سلبيا اعتقادا منّا أنّ معنى النص قيد صيغ نهائيا وحُدّد فلم يبق إلا العثور عليه كما هو أو كما كان في ذهن الكاتب**»[8] .

فالعناية بالقارئ(المتلقي) أفرزت مجموعة من النظريات والأنماط اندمجت تحت نظريتي القراءة، والتلقي، فالأولى اهتمت بتحديد مفهوم القراءة وأشكالها ومستويات العاملين عليها ومن ثم حاولت تقديم بعض السبل لتحقيق القراءة المثالية أو ما أسماه "أمبرتو إيكو" «**بالقارئ النموذجي Reader ــــ Model**»[9] ، محدّدا ومن اشتغل معه في نظرية القراءة أصنافا من القراء ودرجاتهم إلى غاية القارئ السلبي، وقد عملت هذه النظرية بالموازاة مع نظرية التلقي، التي حدّدت هي الأخرى أشكال التلقي وسياقاته المختلفة متحدّثة عن الحالة النفسية للمتلقي ومصادره اللغوية ودرجة حدسه وذوقه النقدي،

لتحقق النظريتان معا تكاملا فكريا يتجسّد في عنايتهما بالطرف الفاعل في العملية القرائية مع اختلاف المسمّيات بينهما.

إنّ إنعام النظر في هذه الاتجاهات الثلاثة، يؤكّد تكاملها، ويجلّي السببية القائمة بينها، «**فعناصر الموقف هاهنا ثلاثة: كاتب، وكتاب، وقارئ، فلولا الكاتب وكتابه (وفي هذا يدخل الشاعر وقصيدته) لما كان قارئ، وبالتالي لما كان ثمّة ناقد، وكذلك لو كتب كاتب كتابا لغير قارئ ــــ في حاضر الأيام أو مستقبلها ـــــ كأن يستخدم رموزا لا يفهمها سواه، لفقد الكتاب أخصّ خصائصه، وبطل بهذا أن يكون كتابا بالفعل والأداء، فعملية**

التوصيل من الكاتب إلى القارئ ـــــ عن طريق الكتاب ـــــ شرط ضروري لتكتمل للموقف عناصـــره»[10]، مـــا يوضحّه المخطّط الآتي:

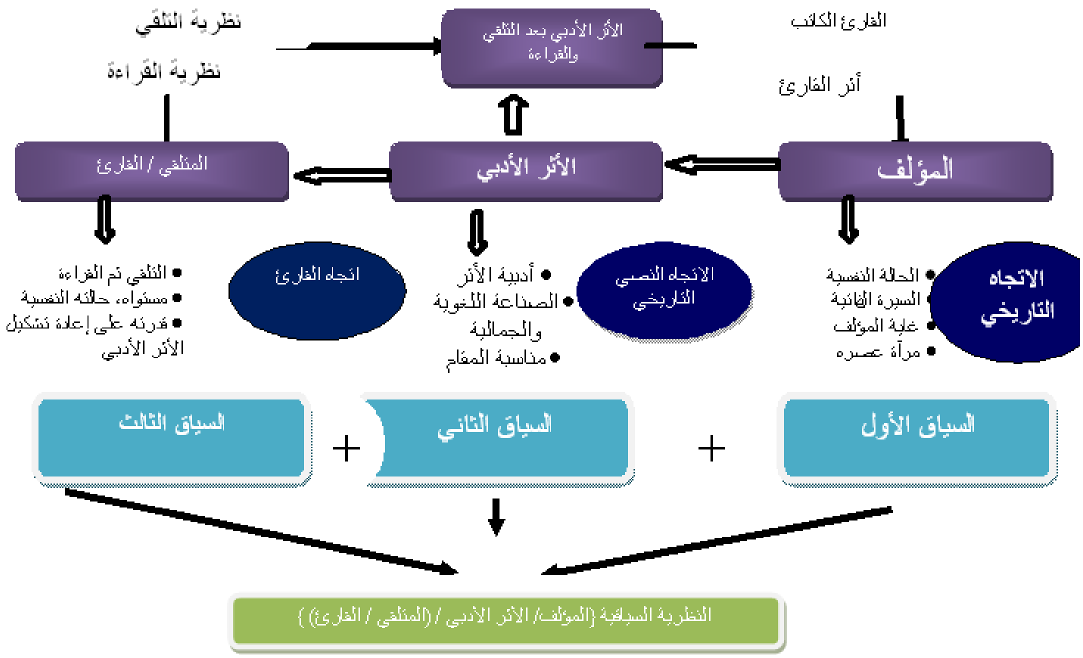

مخطط توضيحي للعلاقة بين أطراف العملية القرائية ودورها في بناء النظرية السياقية*

من خلال الخطاطة السابقة، يتّضح أن العملية القرائية محاطة بمجموعة من السياقات المتوزّعـــة علـــى أركانها بشكل منتظم، تسمح بتجسيد نسق قرائي مرن ذو بنية مائعة لا تحدّ من حركية العناصر المكوّنة لكل سياق و تموضعها تبعا للمتغيّرات التي تطرأ عليها، وهو ما يؤكّد عمل النظرية السياقية على تجاوز الأحادية المضروبة على العملية القرائية بفعل التركيز على أحد أطرافها في الاهتمام النقدي، ممّا يتسبّب في عدم نضج الطروحـــات النقدية المنفصلة والمنعزلة بفعل هذه الأحادية، برغم ضرورة الالتحام المعنوي الواجب توفّرها فـــي مثـــل هـــذه الحالات، الذي توفّره النظرية السياقية التي نحن بصدد معالجتها، مفهوما ومن ثم أثرها في قراءة النص التراثـــي العربي.

لقد ارتبط مصطلح النظرية السياقية **Contextual Theory** بالبحث اللغوي الذي نظر إلـــى المعنـــى بوصفه «وظيفة في السياق» للتأكيد على الوظيفة الاجتماعية للغة، بدراستها اللغة انطلاقا من الظروف الاجتماعية المحيطة بها، وقد ظهر هذا الاتجاه مع «جون فيرث» الذي رأى إمكانية دراسة معاني الكلمات من خلال شـــبكة علاقاتها مع الوحدات الأخرى التي تجاورها وفي خضم السياقات المختلفة التي توضع فيهـــا «**معظـــم الوحـــدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصـــفها أو تحديـــدها إلا بملاحظـــة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها**»[11]، ليتحدّد مفهوم السياق كالآتي: « **بناء كامل من فقرات مترابطة، فـــي علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة. و دائما ما يكـــون**

سياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها»[12].

بتحليلنا لهذا المفهوم نجده يتكون من العناصر الآتية:

❶ بناء متكامل: أي أنّ هناك وحدات لغوية متضامة تشكّل معا نسيجا نصّيا متراصا، بحيث إذا اختلفت المواضع تغيّر البناء الهندسي للنص ومن ثم معناه، وهو ما يحقّقه الترابط الفقراتي المشار إليه في المفهوم.

❷ الترابط الداخلي والخارجي: أي العلاقة المكانية المبنية على التجاور القريب أو البعيد بين وحدات الفقرة، ثم خضوع هذه الأخيرة كوحدة كلية إلى السياق الخارجي الذي يمثّل الإطار العام الموحّد للفقرات على مستوى الحقل الدلالي للنص.

❸ مجموع السياقات الصغرى: التي يصنعها نظام التجاور والتوالي الخطيّ للوحدات اللغوية، وكذلك المحور الاستبدالي لتحصيل المعنى العام، بشكل ييسّر للمتلقي والقارئ التفاعل مع النص.

ولقد وضع "جون فيرث" ومن اشتغل معه على النظرية السياقية، أربعة أنماط للسياق هي:

❶ السياق اللغوي: يتعلق بالحقول الدلالية المختلفة التي تظهر فيها الكلمة نفسها، مع تحميلها بدلالات ومعان جديدة لا تنفك ترتبط ببعضها من خلال خيوط رفيعة تنسجها البنية المعجمية للكلمة.

❷ السياق العاطفي: يظهر خاصة في النبرة الانفعالية المصاحبة للأداء اللفظي، خصوصا ظاهرتي النبر والتنغيم، والموسيقى الأدائية المصاحبة للفعل الكلامي.

❸ سياق الموقف: يتقاطع بشكل مكثّف مع السياق اللغوي في الحقول الدلالية، وما يميّزه انتماؤه الأساسي إلى لغات التخصص والمعاجم المتخصّصة، فيكون في الخطاب بصورة مميّزة تراعى فيها مستويات المتخاطبين.

❹ السياق الثقافي: علاقته وطيدة بالإرث اللغوي المشترك للجماعات المتكلمة التي تنتمي إلى دائرة لغوية واحدة، وأفضل مثال نصوغه لهذه الحالة؛ الأمثال والحكم المأخوذة من تجارب مختلفة، تذكر كلّما تشابه السياق والموقف.

ويجب أن نشير إلى أنّ الاعتناء بالسياق في النظرية الغربية لم تكن له علاقة مباشرة بقراءة وتلقي النصوص، بل جاء نتيجة للبحوث المتعلقة بعلم اللغة أو الدراسات اللسانية التي بحثت في وظيفة اللغة واجتماعيتها، بينما نجده في التراث العربي حاضرا في جوانب كثيرة تتعلق بالقراءة الصحيحة والتلقي السليم للنصوص الأدبية خاصة، لتحقيق المتعة القرائية وتحصيل الفائدة المعنوية والغاية من وضع النصوص.

وهو ما نسعى لمعالجته بتسليط الضوء على مفهوم السياق عند الباحثين العرب المتقدّمين، ثم عرض نموذج تطبيقي لفعالية هذا المنهج في تلقي النص العربي التراثي.

«**لكل مقام مقال**»، عبارة على إيجازها؛ توضح عناية علماء العرب المتقدّمين بالسياق، فلا شك أنّ لكل فعل كلامي هيئته وظرفه وبيئته التي تسمح بصدوره، وإذا عمدنا إلى تحليل المقام والمقال وجدنا تلكم السياقات الأربعة التي تحدّثت عنها النظرية الغربية «**فالسياق متضمّن داخل التعبير المنطوق بطريقة ما**»[13]، فمراعاة السامع أو المتلقي وهيئة الخطيب أو المتكلم وانتقاءه لما يحقق بلاغة وجمال قوله كلّها سياقات صغرى أكّد العرب على حضورها، ووضعوا لها الشروط والمواصفات التي تعين على تحقيقها، وهو ما ذهب إليه "ابن قتيبة" موصيا الكتاب بمراعاة مقتضى الحال قائلا: «**ونستحب له ـــ الكاتب ـــ أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر**

الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام»[14] ما نستعرضـــه من خلال الخطاطتين الآتيتين:

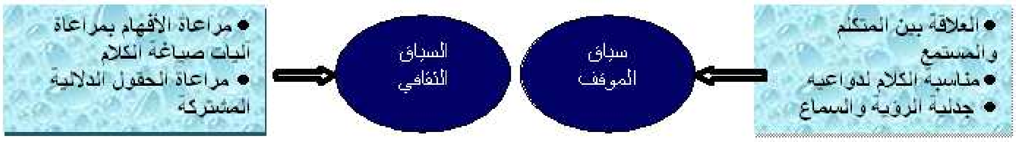

سياقات المقام في النظرية العربية

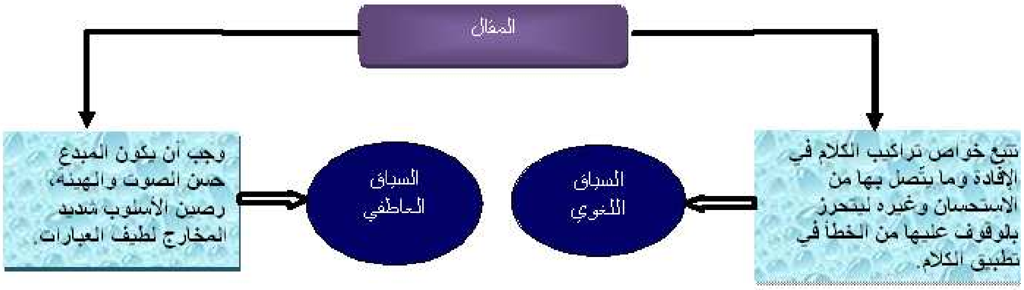

سياقات المقال في النظرية العربية

وتجب الإشارة إلى أنّ العناية العربية بالسياق لم تقف عند هذا الحد من السياقات الأربعة، بل نجدها حاضرة في النحو والبلاغة أيضا من خلال اهتمام رجالات المجالين بسلامة التراكيب وصحة معناها إضافة إلى رونقها وجمالها.

أمّا النحاة ، فيطالعنا "سيبويه" بإشارته إلى دور السياق في تحصيل المعاني المختلفة للكلمة الواحـــدة[15]، قائلا: « **اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين (المختلف) واختلاف اللفظين والمعنـــى واحـــد (المترادف)، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين (المشترك اللفظي)»**[16]، مؤكّدا أنّ تعدّد معنى الكلمـــات متعلّـــق بالقصد منها، ولا يفسّر هذا إلا وضع الكلمات في التراكيب اللغوية المختلفة أي بحلها في سياقات متنوّعة تحمّـــل بدلالات جديدة ومغايرة، كما اعتبروا من السياق القرائن اللفظية

والمعنوية، وكذلك العلامات الإعرابية وأدوات الربط والتضام، كلها من الكواشف عن المعنى النحوي الدلالي*.

وعن البلاغيين، يكفينا الاستشهاد برأي "عبد القاهر الجرجاني" حين ربط فصاحة الكلمة واستقامة الكلام على الجادة بالسياق اللغوي ثم بالتركيب الذي جاء فيه **«وجملة الأمر أنّا لا نوجب الفصـــاحة للفظـــة مقطوعـــة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلّقا معناها بمعنى ما يليها»**[17] وقد أراد عبد القاهر بهذا، الحديث عن السياق اللغوي من خلال العناية والانتقاء وحسن الجوار بـــين الوحـــدات اللغويـــة

(الألفاظ)، وبعدها قدرة صاحبه على الإتيان به والتحكّم فيه من خلال العناصر اللغوية وغير اللغوية المرتبطة بوسائل الإقناع والإمتاع خاصة الأداء الفردي وما يحمله من شحنات نفسية وعاطفية.

إن إطنابنا وإسهابنا في تناول مفهوم السياق بشكل عام، وعند العرب بخاصة، ليس غرضه تمجيد العرب وذكر فضلهم في العلم بالنظرية السياق وأهميتها قبل غيرهم، إنّما الغاية منه الإجابة عن تساؤل قد يبعث على التأسيس الحقيقي لنظرية لغوية ونقدية عربية، ويملّك القارئ العربي منهجية تميّزه عمن سواه، هو ما حاجتنا إلى قراءة نصنا التراثي بسياقية غربية؟ ونحن نملك نظرة نحوية وبلاغية عربية عالجت السياق في مختلف أصعدته، كما أنّ النقد العربي القديم عالج مفهوم السياق من خلال العناية الفائقة بالمتلقي، فقراءة النص التراثي العربي قراءة سياقية غربية لا طائل من ورائها، لأنّ هذا النص العربي محمّل بطريقة تلقائية* بمختلف السياقات سواء كانت لغوية أو دلالية أو صوتية أو نحوية، وخير مثال نسوقه للتدليل على صحة ما نرمي إليه، ما كان يفعله أصحاب الحوليات أو القصائد الطوال كشأن زهير بن أبي سلمى من تنقيح لأشعارهم، أليس في سبيل تحصيل رضى المتلقي أو السامع، ثم ألا يعني هذا رعاية خاصة بسياقات متصّلة يصنعها القارئ والناقد معا؟ «**فالبلاغة هي ما رضيته الخاصة وفهمته العامة**»[18]، إذ الخاصة لا ترتضي الفهم وحسب، بل تتجاوزه إلى صياغة الطريقة التي تنتهي إلى الفهم وتحقيق الرضى والإشباع النفسي فيتجسّد الإبداع النصي.

لنخلص إلى أنّ القراءة السياقية للنص التراثي حاضرة فيه محققة من خلال مختلف السياقات التي يحملها، فمعرفة مناسبة النص ومقامه؛ وصاحبه ومتلقيه أو الموجّه إليه مع تحصيل بنائه المعنوي لما تقاطع فيه من إرث لغوي مشترك وألفاظ حمّلت لغير ما وضعت لها في نصّها، كلّها معارف سياقية يحتاجها الناقد والقارئ اليوم لقراءة النص التراثي العربي بغية استكشاف مغاليقه لتحصيل مضامينه، وجماع كل هذا في قول العرب **«لكل مقام مقال»**.

الهوامش والإحالات:

[1] محمد بركات حمدي أبو علي، ***بحوث ومقالات في البيان والنقـد الأدبـي***، دار البشـير للنشـر والتوزيـع، عمـان، 1409هـ/1989م، ص 47.

[2] رامان سيلدن، ***النظرية الأدبية المعاصرة***، ترجمة: د. جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيـع، القـاهرة، 1991م، ص 16.

[3] عبد الناصر حسن محمد، ***نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي***، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، (د،ط)، 1999م، ص 07.

[4] عبد الله الغذامي، ***الخطيئة والتكفير "من البنيوية إلى التشريحية"***، النادي الأدبي الثقافي، جدة، العدد الثاني، 1985م، ص 26.

[5] صلاح فضل، ***نظرية البنائية في النقد الأدبي***، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط03، 1980م، ص 50.

[6] تزفيطان تودوروف، ***الشعرية***، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغـرب، ط02، 1990م، ص 30.

[7] عبد الناصر حسن محمد، ***نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي***، ص 64.

[8] حسين الواد، ***القراءة والكتابة***، منشورات جامعة تونس، (د،ط)، 1988م، ص 189.

[9] صبحي حديدي، مقال موسوم بـ: ***ما هي القراءة؟ من هو القارئ؟ وكيف التعاقد على المعنى؟***، مجلة الكرمل فصـلية ثقافية، مؤسسة الكرمل الثقافية، بيروت ـ فلسطين، ع 36، ربيع 2000م، ص 136.

[10] زكي نجيب محمود، ***في فلسفة النقد***، دار الشروق، القاهرة، ط01، 1399هـ/1979م، ص 109.

[11] أحمد مختار عمر، ***علم الدلالة***، عالم الكتب، ط02، 1988م، ص 68 ـ 69.

[12] إبراهيم فتحي، ***معجم المصطلحات الأدبية***، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية للطباعـة والنشـر، صفاقس، تونس، ط01، 1986م، ص 301 ـ 302.

[13] محمد حماسة عبد اللطيف، ***النحو والدلالة "مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي"***، القـاهرة، 1403هـ/1983م، ص 98.

[14] ابن قتيبة، ***أدب الكاتب***، حققّه وعلق حواشيه ووضع فهارسه: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيـع، (د،ط)، 1402هـ/1981م، ص18.

[15] لمزيد من التوسّع ، ينظر: عواطف كنوش المصطفى، ***الدلالة السياقية عند اللغويين***، دار السياب للطباعة والنشر، لندن، ط01، 2007م، ص 98 ـــ 103.

[16] سيبويه، ***الكتاب***، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط03، 1408هـ/1988م، ج01،ص24.

[*] لمزيد من التوسّع ، ينظر: عواطف كنوش المصطفى، ***الدلالة السياقية عند اللغويين***، ص 101.

[17] عبد القاهر الجرجاني، ***دلائل الإعجـاز***، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر،مكتبه الخانجي، القاهرة، ط05، 2004م، ص 402.

[*] بصفة آلية

[18] ابن حجة الحموي، ***ثمرات الأوراق***، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخـانجي، القـاهرة، ط01، 1971م، ص 335.